الحياة النفسية للجنس الاســـــود

للاستاذ أحمد فؤاد الاهوانى

أستاذ الفلسفة بالمدارس الثانوية

إنك إذا نظرت إلى الناس على كثرتهم عداً ، واختلافهم شعوباً وأمماً ، وتباينهم نحلاً وملالاً ، لا مكنك بالرغم من كل ذلك أن تضرب صفحاً عن كثرة عددهم واختلاف شعوبهم وأممهم ونحلهم ومللهم ، ثم تجمعهم جميعاً تحت جنس واحد يندرجون تحته ، ويلم هذه الأفراد المتباينة المتباعدة ، ذلك الجنس هو الانسانية ؛ ولكنك مع ذلك تستطيع أن تحللها ، لا إلى دولها وممالكها وأقطارها ، فهى كثيرة لا يحصيها العد ، ولا إلى لغاتها ولهجاتها فهى متعددة مختلفة ، فهذه كلها أقسام صناعية ، هى أعراض مفارقة قابلة للزوال ، فالأمم تمحى من صفحة العالم ويقوم على أنقاضها أمم طارئة ، وقد تقص أجنحتها أو تتسع رقعتها ، وقد تزول لغة الأمة ويستبدل أهلها لساناً غير لسانهم ولهجة غير لهجتهم ؛ ولكننا نريد أن نصنف الانسان فى أجناس ثابتة ، تقوم على فوارق ذاتية غير عارضة ، واختلافات دائمة طبيعية غير زائلة ، فاذا اتخذنا أساس تصنيفنا المميزات الجسمية والظواهر النفسية ، أخرجت لنا ثلاثة أجناس كبار ، تتفق فى الانسانية عامة من ناحية ، ولكنها تختلف فى بعض الصفات والمميزات من ناحية أخرى ، هذه الاجناس الثلاثة هى : الجنس الأسود ، والجنس الأبيض ، والجنس الأصفر ؛ وهذا أفضل تقسيم ، لا لسهولته ووضوحه فقط ، ولكن لثبات هذا التقسيم إلى درجة كبيرة ، فهناك لكل جنس من هذه الأجناس مميزات خاصة يعرف بها ، ولا يهمنا الآن ذكر صفات الجنس الأبيض والأصفر ، ولكننا نذكر مميزات الجنس الأسود الذى نريد أن نتناوله بالبحث . وقد فطن ابن خلدون فى مقدمته إلى مثل هذا التقسيم الحديث ، وإن كان تقسيمه عرضة للتجريح من نواح متعددة ، إلا أنها محاولة نستطيع أن نقول إنها الأولى لشرق هو أول من تناول علم الاجتماع وشيئاً من علم النفس بطريقة منظمة ؛ ولكن ابن خلدون لم يذكر من صفات الجنس الأسود إلا لونهم الأسود . ثم ذكر تعليل هذا اللون من ناحية ، ووجه نقداً مريراً شديداً إلى من تناولوا هذا الموضوع بالبحث من قبل وأخطأوا فيه من ناحية أخرى ، قال فى المقدمة الثالثة : «وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ، ظهر أثرها فى لونه ، وفيما جعل الله من الرق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصص ؛ ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد اخوته

لاغير — وهنا تقرأ تعليل ابن خلدون لطبيعة السواد فانظر — وفى القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فان الشمس تسامت رءوسهم مرتين فى كل سنة قريبة احداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر»

وقد فطن ابن سينا إلى هذا الأمر فقال فى أرجوزته فى الطب :

بالزنج حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضاضا

أما العلماء المعاصرون فانهم قد بحثوا المسألة بحثاً علمياً، استنفدوا فيه كل أجزائها ونواحيها، وكانت نتيجة بحثهم وملاحظاتهم أن الجنس الأسود يختلف لونه من البنى الغامق إلى الأسود الشديد السواد، وشعورهم دائماً سوداء قصيرة ومجعدة ، وقليلا ما تنبت لحاهم ، وإذا نبتت كانت مجعدة أيضاً، والرجل الأسود هو (دوليكوسفال)(DOLICHO(EPHALES) وهى من الكلمتين الأغريقيتين (Dolichos) ومعناها طويل، وكلة (KEPHALE) ومعناها الرأس — أى جمجمته على العموم تمتد من الامام الى الخلف وضئيلة الحجم ، والجبهة ضيقة ومسطوحة ، وعيونهم الغامقة تتوسط رءوسهم، والأنف كبيرة ومفرطحة ، والفم واسع ذو شفاه غليظة.

والآن ماهو الفرق من الناحية النفسية بين الأجناس الثلاثة اذا صرفنا نظراً عن فوارق السن والدولة والطبقة والفوارق الشخصية والجنسية ؟ شبه كثير من العلماء الاجناس الثلاثة بالمراحل الثلاثة لحياة الانسان : الطفوله والشباب والكهولة . فبين الطفل والانسان الفطرى أوجه شبه متعددة، فالجنس الأسود كالطفل؛ وهذه الموازنة ذكرها كثير من علماء الاجتماع وعلماء الأجناس أمثال : سبنسر ، ودينكر(١) ، وليتورنو ، وهوفيلاك ، كذلك كثير من الرحالة . أما الجنس الابيض فهو كالشاب ، والجنس الاصفر كالكهل؛ ويجب أن لاننسى أن هذا التشبيه عام يترك وراءه كثيرا من الشواذ.

لنصف بعد ذلك هذا الجنس الأسود من الناحية النفسية ، أعنى من ناحية حياته النفسية التى ذكرنا فى عدد سابق من «المعرفة»، من ناحية إدراكه وتفكيره ، وجدانه وعاطفته ، نزوعه ورغباته وإرادته وميوله . وأول مايلفت النظر هو أهمية حاجياتهم الطبيعية لهم، فكل مايهم الأسود قبل كل شىء هو الرغبة فى الطعام والشراب ،وكذلك الميل الجنسى ؛ والشعوب الفطرية التى تسكن أواسط أفريقيا وجزر المحيط الهادى لاترتقى كثيراً عن مستوى الحيوان ، وذلك لشهوتهم الملحة نحو الأكل ، والصيغة المنحطة التى يشبعون بها هذه الشهوة ؛ فغاية

[1] DENIKER.LES RACES ET LES PEUPLES DE LA TERRE.

الزنجى أن يملأ بطنه حتى النهاية ، وهو بهذا سعيد لأن السعادة كثيراً ماتكون نتيجة البطون الممتلئة ، وبعض هؤلاء الزنوج من أكلة البشر ، ولكن ليس من طبعهم لؤم ولا إفساد ، بل تقوم الحرب عندهم للبحث عن الطعام، فهى بذلك نوع من أنواع الصيد.

وحواسهم فى الغالب مرهفة، ويستعملونها قبل كل شىء لاشباع حاجاتهم الطبيعية؛ والزنجى كثير الحركة، فهو أشبه فى حركته بحركات الأطفال ، ويميل إلى الرقص ميلا شديداً قديصل إلى حد الشغف به ، ويصحب الرقص موسيقى أولية تستثير نفسه فينتشى من الأنغام والحركات؛ وقد وصف ابن خلدون شغف الزنوج بالأكل والرقص وأرجعها إلى أسباب طريفة ،قال فى المقدمة الرابعة : « من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق فى كل قطر ، والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى موضعه من الحكمة ، أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس ، وهو انقباضه وتكاثفه ، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار، مخلخلة له زائدة فى كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه ، ... ولما كان السودان ساكنين فى الاقليم الحار، استولى الحر على أمزجتهم، وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا فتكون أسرع فرحا وسروراً، وأكثر انبساطا، ويجىء الطيش على أثر هذه ...» ؛ وقد تناول غير ابن خلدون ممن سبقوه ذكر تعليل أخلاق السودان، فقد سفه ابن خلدون نفسه آراءهم فقال: « وقد تعرض المسعودى للبحث عن السبب فى خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم ، وحاول تعليله فلم يأت بشىء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحاق الكندى ، أن ذلك لضعف أدمغتهم، وما نشأ عنه من ضعف عقولهم، وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه» . ولا نريد أن نتعرض لنقد رأى ابن خلدون طويلا، فليس هذا شأننا الآن؛ ولكننا نقول إن كلا الرأيين : رأى المسعودى، ورأى ابن خلدون خاطىء، أو إذا كان به نصيب من الصحة ففيه كثير من الخلط والابهام والغموض، وذلك أنه ـ ومثله فى ذلك مثل كثير من القدماء ـ يخلط المشاهدة بالتفسير ، والتعليل بالواقع ، ذلك أنه فى مثل هذه المسائل نكتفى بالملاحظة الدقيقة التى نشاهدها عن بحث أسبابها وعللها ، لأن هذا يدخلنا فى جدل لا خلاص منه ، ويخرج بنا من ميدان العلم الوضعى الصحيح إلى ميدان الفلسفة وما وراء الطبيعة .

نعود إلى ماذكرناه من وصف الظواهر النفسية عند الزنوج ، فنقول إن الاحساس والحركة تشغل تقريبا كل مجرى الشعور الضيق عندهم ، فلا يبقى بعد ذلك إلا مكان تافه لذكريات الماضى، ومشاغل المستقبل .

وتلعب العادة دوراً مهما فى حياة الزنجى التى تجرى على وتيرة واحدة ، فهو يميل إلى أن يردد على نسق واحد وبطريقة جد آلية الافعال التى عملها من قبل ، فهو يتذكر الأشياء ليعملها بنفس الطريقة التى سبق أن أتى بها هذا العمل ، وهذه الذاكرة التى نستطيع أن نسميها ذاكرة نفعية ، كثيرا ما تكون على شىء من الحدة شديد ، بل قد تكون أحيانا خارقة للعادة ومما يحكى فى هذا الصدد أن بعض المبشرين الذين ذهبوا إلى أوساط أفريقيا شاهدوا بعض الزنوج يحفظ قطعة موسيقية بأكملها لأول مرة دون أن يخطىء فيها ؛ ومع ذلك فالزنجى يضطرب فى استحضار الصور المختلفة التى مرت عليه خلال النهار ، فتصوره للماضى من هذه الناحية غامض مبهم مضطرب ، إذ يخلط بين ما يتذكره وما يتخيله ، ثم هو بعد ذلك يقع فريسة لأوهامه وخيالاته ، وقد كانت نتيجة اضطراب الذاكرة وخلطها أنه لا يعرف حسابا دقيقا مضبوطا للزمن ، فالزنجى يجهل حتى عمره ؛ هذا ولما كان الزنجى لا يحسن التذكر فانه قليل البصر بالمستقبل أو ماقديقع فى المستقبل ، وقد أجمع الرحالة على طيش الاستراليين وأهل أواسط أفريقيا وغفلتهم العجيبة ، فالاستراليون عاجزون عن أداء أى عمل متواصل ، لا يجنون ثمرته إلا فى المستقبل ، كذلك (البوشمان) فعندهم إما رخاء ويسر أو قحط وعسر ؛ فالزنوج مؤمنون بالقضاء والقدر ، تكفيهم الساعة التى هم فيها دون أن يتطلعوا إلى المستقبل .

فلما كانت حياتهم محدودة بالوقت الحاضر ، كانت حياتهم النفسية محدودة كذلك إلى حد كبير ، فالشطر الوجدانى من الحياة — وهو أهم شىء فيها كما بينا عند الكلام على الانفعالات فى عدد سابق من « المعرفة » ، حياتهم الوجدانية متقلبة وغير بعيدة الغور ، فانفعالاتهم حادة ولكنها لا تدوم ؛ كذلك لاحظوا عليهم خفة كخفة الاطفال ، وفرحا وقتيا ، ولا يهتم الزنجى بما يجىء بعد ذلك ، فقد ينتقل من الضحك إلى البكاء ، ومن البكاء إلى الضحك ، كل ذلك فى فترة قصيرة جدا كما يفعل الاطفال تماما .

أما ذكاؤهم فلا يبعد كثيرا عن الحس ، ويقول سبنسر نقلا عن (بريتون)(١) : إن العقل الافريقى — يريد أواسط أفريقيا — لا يستطيع أن يسمو فوق دائرة الحواس ، ولا يستطيع أن يشغل نفسه بغير الحاضر .

وحياة النزوع عند الزنجى ، أى ما يدفعه إلى الحركة ، أكثرها أفعال منعكسة REFLEXEs ورغبات طبيعية أكثر منها حياة خاضعة لارادة قوية ، فسلوكه كما يقول سبنسر سلوك نزوات واضطراب ؛ والتعليم عند الزنوج ، إن كان هناك تعليم ، محدود إلى درجة كبيرة وهو أقل فى درجته ، كما وكيفا ، مما تتلقاه الطبقات المنحطة عند الجنس الابيض والاصفر ، لأن التعليم ، وديعة السلف إلى الخلف ، وهؤلاء لا يتلقون من أسلافهم إلا شيئا ضئيلا ، وذلك لأن حياتهم الاجتماعية ، مثلها فى ذلك مثل حياتهم الفردية ، تتلاشى فى الزمن الحاضر .

أحمد فؤاد الاهوانى

[1] SPENCER — PRINCIPLES OF SOCIOLOGY.